



الحب.. أتشكال وألوان

للأديب الباكستاني سيد جاويد اختر

معه حياة زوجية طيبة، صارت متواطئة مع ولديها، وبدأت تعارضه أيضا، وتتكلم عنه، وقد اتفق الجميع على أن صدمة موت «خليلته» أصابته بالخبل أو الجنون.



ترجمة: د. سمير عبد الحميد - اليابان

هذه «الخليلة» التي هي أحب إلى رمضان الأهطل، وأعز عليه من روحه هي «الجاموسة» التي شاع أمر حب رمضان لها في جميع أنحاء القرية، بل في نواحي المركز أيضا، وكان حكماء القرية يقولون: إن هذه حادثة فريدة تعبر عن حب الحيوان للإنسان، فقد سمعوا عن حكايات ارتباط الخيل والكلاب والقرود والفيلة الشديد بإنسان ما، لكنهم لم يشاهدوا مثل هذا الحب الشديد الذي ربط بين رمضان و«خليلته»، وكان الشيخ سرदार إمام مسجد القرية يظن أنه نظرا لتشابه الألوان بين رمضان الأهطل صاحب الوجه الأبيض المحروق، والجاموسة ذات اللون الأحمر المائل إلى السواد، فقد أحب كل منهما الآخر.

ومنذ أن مرضت «خليلته»، ثم انتقلت إلى عالم الآخرة، وولدها قد نسيا تماما فرض طاعته، وصارا في غاية الوقاحة بل ركبا دماغهما، وصارا عنيدين، والأدهى والأمر من هذا أن زوجته بنت الواحدة والعشرين سنة، زينب التي تقضي

كان هذا هو اليوم الثالث على اعتزال «رمضان الأهطل» لأهل بيته، كان قد جاء منذ مساء أمس ليقيم في غرفة «الخزين» المبنية في «الجرن» البعيد عن ساحة البيت، حتى لا يتشاجر مع أهل بيته مرة تلو الأخرى.

الحريق ليقضي على ابن أخيه ويستولي على القراريط الثلاثة، وكان شيخ البلد رجلا صالحا تقيا وورعا، فاحتضن رمضان، وتولى علاجه من الحروق التي أصابته، ثم أسكنه في بيته.

كانت الجاموسة «خليلة» رمضان في الأصل ملكا لشيخ البلد، وكان رمضان يسرح بها مع بقية المواشي، يرعى العشب هنا وهناك في نواحي القرية، لكن كيف بدأت الصداقة بين هذه «الخليلة» وبين رمضان الأهطل؟ لقد قيلت حكايات وقصص كثيرة على ألسنة كثير من الناس عن هذه البداية..

ولا تزال الحكايات تروى عن هذا الأمر حتى يومنا هذا، ويحكى أنه منذ حوالي عشرين سنة في عز الصيف، وفي وقت الظهر، بينما كانت الأبقار والجاموس

لأحد، يداوم على الصلاة، وكان تقيا ورعا، يسعى إلى مصالحة الآخرين، يشاطر الجميع أحزانهم وأفراحهم، وهو معهم في السراء والضراء، ومع هذا لم يكن صاحب حظ أو نصيب طيب، هكذا شاءت الأقدار أن تموت أمه بعد أن أنجبته وحيدا، بعد زواجها بسنوات، وحين بلغ العاشرة من عمره، كان قد انتقل إلى الصف الخامس في مدرسة القرية، وشاء القدر مرة أخرى أن يحرمه من أبيه الذي مات متأثرا ببلدغة ثعبان سام، حين كان يروي الحقل في الليل، وقبل أن ينسى الحزن على وفاة والده، شب حريق في بيت عمه، حيث كان قد انتقل ليقيم هناك، ونجا من الموت بأعجوبة، وقد ظهر فيما بعد أن العم كان يطمع في القراريط الثلاثة التي تركها أخوه لابنه، ولهذا دبر مؤامرة

كانت «خليلة» رمضان الأهطل منذ مولدها حمراء حمرة يشوبها السواد، ولم يكن هذا بالأمر المستغرب، فبعد مولد عشر أو خمس عشرة جاموسة سوداء، قد تولد جاموسة حمراء اللون، وإن كان لونها يشوبه السواد، ولم يكن الأمر كما قال الشيخ سردار إمام المسجد، فرمضان الأهطل في طفولته، ونظرا لأشعة الشمس المحرقة، تأثرت يدها وقدماه وجزء من رقبته بحرقه الشمس التي تركت أثرها الطبيعي عليه، فتحول جسمه من اللون القمحي -بقدرة قادر- إلى اللون النوردي، مما جعل شكله يبدو عجيبا لمن ينظر إليه، بل جعلت هيئته تلك، الناس يضيفون على اسمه منذ طفولته صفة الأهطل..

في البداية كان يتأذى كثيرا ويفضب، إذا ما أضاف شخص ما هذه الصفة على اسمه، لكنه بالتدريج سلم بهذه الحقيقة، ولم يعد يتضايق إذا ما ناداه أحد باسم رمضان الأهطل، كان الناس في البداية يذكرونه بهذا الاسم خفية من وراء ظهره، لكنهم الآن يقولونه في وجهه، حتى زوجته زينب كانت تتأديه بهذا الاسم بشكل طبيعي جدا ودون أي حرج. كان رمضان الأهطل طيب القلب، محبا للخير، لا يتمنى الشر





ترعى العشب على شاطئ نهر «شماهي»، اشتدت الحرارة لدرجة أن الناس غرقوا في العرق الذي كان يتصبب من أجسامهم.. فجأة جاء على خاطره أن يستحم، وأعجبه الفكرة أيما إعجاب، فقد كان الماء بموجه الهادئ الذي يربت على الشاطئ يدعو للاستحمام.. لكنه لا يعرف العوم، ومع هذا فكر في أن يجلس على الشاطئ، ويبرد جسمه ببعض الماء..

مع موج ماء النهر، وفجأة وجد نفسه يصطدم بشيء ضخم، شعر كأنه بجوار حيوان ما، لا بد أنها «خليته» التي قفزت في الماء منذ لحظات، قامت الجاموسة بحركة لا يعلم إلا الله كيف قامت بها، فقد وضعته على رقبتها، وأخرجته من قاع النهر إلى سطح الماء، وأخذت تسبح، بينما هو يمسك بشدة بقرنيها، حتى وصلت به إلى الشاطئ.

حين وصل إلى الشاطئ قفز من فوره، واستلقى على الحشائش وهو يضغط على بطنه حتى يخرج ما بداخله من ماء، وخرج الماء من بطنه على عدة دفعات، كما يخرج الماء من فوهة «مضخة» ماء، ثم جلس على ركبتيه في محاولة منه لاسترداد عافيته، بينما «خليته»

النهر، حيث الماء العميق، وبدأ الماء يدخل حلقه، وحين رأى أنه يواجه الموت لا محالة أخذ يصيح ويصرخ: «النجدة! النجدة!» لكن من أين له من يأتي لإنقاذه؟.. ثم يكن هناك من أحد على الإطلاق. لا يزال يذكر حتى اليوم منظر ماء النهر القريب من القاع، في عز الظهر، وفي فصل الصيف، كانت هناك دقائق تفصل بين حياته وموته، دقائق معدودة، وهي الدقائق التي كان يتمكن فيها من إخراج رأسه من تحت الماء، في محاولة منه لإنقاذ نفسه، وبينما هو كذلك شاهد بعينين عليها سحابة كثيفة ما يشبه «خليته» الجاموسة تقفز في النهر، ظل للحظات مثله مثل علبة لا حول لها ولا قوة تتحرك هنا وهناك

لم يكن حوله أحد، ولا «نفاخ نار»، وهكذا فك حزام سرواله، خلع قميصه، وخلع السروال، ثم جعل من عمامته رداء التف به، وزحف على الحشائش الخضراء إلى أن وصل إلى حد الماء، وأخذ يغرف الماء، يرش به جسمه، وشعر بسرور عجيب، وهكذا ظل لفترة طويلة يلعب في الماء، يحاول أن يتخلص من حرارة الشمس المحرقة.

فجأة! انزلت قدماه من فوق الحشائش المبتلة، ووجد نفسه في لمحة واحدة يسقط في النهر، ثم ماذا حدث؟ لقد أخطأ خطأ كبيرا، حاول أن يضرب بيديه ورجليه هنا وهناك في محاولة للإمساك بالحشائش، لكن دون فائدة! فقد جرفته سرعة الماء فورا إلى عرض

بجواره تهز رقبتها فوق وتحت في قلق عليه شديد، وقطرات الماء تنساب من فوق جسمها.

كل هذا بينما كانت هناك تسع جاموسات سوداء، مع ثلاث من ولدانها، وعدد من البقرات ترعى على بعد مسافة قصيرة منه، لا يبدو عليها أي تأثر أو اهتمام بما حدث، لم يفكر في إنقاذه سوى خليلته تلك، التي لم يزد عمرها على سنتين أو سنتين ونصف، فهي لم تكد تشب وتصبح جاموسة بالغة عرفت معنى عواطف المحبة والتضحية، فكيف جازفت بنفسها لتنقذ إنسانا من فك الموت؟ كيف تولدت بداخلها هذه العاطفة؟... لم يستطع أن يفهم ما حدث؟ ولم يتمكن من أن يجد تفسيراً له..

تهدد تهديداً طويلة.. تهديداً الحياة.. ثم وجد نفسه يحتضن رقبة خليلته الجاموسة، ويقبلها بجنون، ثم أخذ يحك رأسه في رقبتها، ويربت عليها براحتيه في سرور ومحبة.

في ذلك اليوم رجع بالمواشي من المرعى مبكراً، فتعير شيخ البلد من هذا الأمر كثيراً، وتحير أكثر حين سمع القصة، وقرر أن يهديه هذه الجاموسة فرحاً بنجاته من الفرق.

أخذ رمضان الأهطل نفساً

عميقاً وهو يقول في نفسه:

يا له من إنسان طيب شيخ البلد هذا!!

ثم وضع خرطوم الفارجيلة في فمه وسحب نفساً من بعد آخر، بينما صوت «الكركة» ينبعث في تناغم عجيب، ثم تذكر أن شيخ البلد هذا هو الذي زوجه من زينب، وهو الذي رتب أمر زفافه، وحفل عرسه، فلم يكن يمتلك شيئاً، وكما يقولون:

لا وراءه، ولا قدمه..

ثم انقطعت العلاقة بينهما، لأن شيخ البلد تمكن من رفع قضية في المحكمة، وأعاد لرمضان الأهطل قراريطه الثلاثة التي ورثها عن أبيه، وفي السنة الأولى التي حملت فيها «خليلته» أول حملها، توفي شيخ البلد، بعد أن تعرض لحادثة أثناء عودته من لاهور.. احتواه الحزن والغم آنذاك.. كانت فجيرة ما بعدها فجيرة.. وهكذا وفي شتاء نفس العام، وبناء على إصرار زينب، انتقل رمضان الأهطل إلى حيث يعيش أهل زوجته.

باع أرضه، ثم اشترى أرضاً جديدة، ثم أسس هذا «الدوار» الفسيح، وهنا رزقه الله بولدين مطيعين، مخلصين، في السنة الماضية تزوج ولده رشيد بزوجة سمحة الوجه، هشاشة بشاشة،

تقوم على خدمته خير قيام، وهكذا مرت عليه إحدى وعشرون سنة، كانت كلها سعادة وهناء، وطمأنينة ورخاء، حتى مرضت «خليلته» فجأة وماتت، ومن وقتها كأن عين سوء أصابت أسرته وبيته..

وبينما كان يضط على خرطوم الفارجيلة وهو يسحب نفساً من بعد نفس، والدخان يتصاعد أمامه، وهو غارق بطريقة لا شعورية في ذكريات الماضي، إذا به يسمع صوت أسلم ولده الأصغر:

أبي! «كرسي» الدخان ليس فيه نار، وأنت تسحب الأنفاس هكذا دون دخان!

أخذ الابن كوب الشاي، أمسكه بيده.. ووقف عند الباب وهو يبتسم، ثم خطا خطوة للأمام وقال لأبيه:

خذ! اشرب الشاي.. سوف أقوم بتغيير كرسي الدخان وأضع عليه الفحم..

لا.. يا طيب.. لا ضرورة لذلك.

هكذا خاطب رمضان الأهطل

ولده أسلم، فكان يقول له دائماً: يا طيب!

فقال له أسلم وهو يضغط على كلماته:

يبدو أنه لم يرجع إليك عقلك..



فقال أسلم بلهجة فيها
مرارة:
حسناً! لماذا دفنتها وبنيت
لها قبرا، ووضعت على قبرها
الزهور؟ ما ضرورة كل هذا؟ إن
الناس يتندرون عليك، ويسخرون
مما تفعل..
فقال رمضان الأهطل بصوت
خافت:

يا بني! ألم أقل لك..
لقد كانت مثل أمي؟
ثم أردف يقول:
كنت ابن ستة أشهر..
ربما.. حين رحلت جدتك
عن هذه الدنيا، وخليتي
هذه، جاموستي حبيبتي
صارت أمي وأرضعتني
مدة إحدى وعشرين سنة!
حملت خلالها خمس
عشرة مرة، وتكاثر أولادها
فعم الخير، وجرت أنهار
اللبن، ماذا كنت أكسب
من الأرض؟ يا أحمق! يا
مجنون! هذا الكسب الذي

حققناه كان من لبنها، وهذه الثروة
التي كسبناها كانت من ورائها، ألا
يكون من حقها علي أن أجعل منها
أمّاً، أبني لها قبرا، وأضع عليه
باقة من الزهور؟
نعم! نعم! لم لا؟ لك كل الحق
في هذا..

الناس! منطقكم عجيب.. يا أهبل!
«خليتي» هذه لم تكن حيوانا عاديا
مثل بقية الحيوانات، لقد أحببتها
مثل أمي تماما، أنت تعرف أنها
قبل عشرين سنة أنقذت حياتي،
ولو كنت غرقت في نهر «شماهي»
في ذلك اليوم، لما كنت ولدت أنت
نفسك.. فمن أين كنت ستأتي؟



صحيح كلامك يا أبي.. لكن في
ديننا نحن نسمي على الحيوان ونكبر،
ونذبحه ويحل لنا أن نأكل لحمه،
الشيخ سردار يقول هذا أيضا..
فانتفض رمضان الأهطل
قائلا:
غلط.. كلام الشيخ غلط..

ثم أكمل حديثه قائلاً:
أبي! حبك لخليتك تلك أمر
في محله.. خلاص! لكن يجب
أن تسائر الزمان، خذ! اشرب
الشاي..
أمسك رمضان الأهطل بكوب
الشاي، ثم أخذ يرتشف رشفة بعد
رشفة بصوت مسموع، ثم توقف
وقال فجأة:

أنت تعلمت حتى
الثانوية، تعلمت أكثر مني،
لهذا تعتبرني جاهلا وتهزأ
مني!
فرد عليه أسلم بلهجة
ممزوجة بالحنان:
لا يا أبي! ليس الأمر
كذلك.. لكن عليك أن تفكر
بنفسك، أليس كلامك هذا
عجيباً؟ لو سمعه الناس
لسخروا منك.. ثم انظروا
نحن لم نذبح خليتك
الجاموسة بناء على
أمرك، ودون ما سبب ماتت
الجاموسة «فطيس»... و...

فاشتعل الأب غيظا وقاطع
ولده قائلاً:
لماذا تعيد وتزيد في قولك:
ماتت «فطيس»؟، إن الإنسان
يموت موة طبيعية بعد مرضه
دون أن يذبحه أحد، فهل هذا
يعني أنه مات «فطيسا».. أنتم أيها

هكذا قالت زوجته زينب التي كانت تسمع حديث الابن مع أبيه، وهي تقف بجوار الباب، فدخلت، وقالت بلهجة غاضبة:

ضع الزهور على قبرها، زينه بالورود، وضع التراب على رؤوسنا، سوّد عيشتنا! اسمع يا رمضان يا أهطل! لقد تحملت طوال حياتي تدليك لخليتك، تلك الجاموسة، ومسلكك العجيب تجاهها، وكنت أعد لها طعامها ليل نهار، وأنظف روثها طول النهار والليل حتى لا يتسخ المكان وتصبح رائحته كريهة.. و..

فقاطعها رمضان الأهطل مذكرا إياها قائلا:

لقد كنت أقوم أيضا بكل هذه الأمور... خليلتي هي خليلتي، هكذا كانت، لا يمكن أن تولد في هذه الدنيا جاموسة محبة مثلها حتى يوم القيامة..

ثم قال:

حسنا.. هذا كذب! أتذكرين حين جاء إلى «دوار بيتنا» هذا لصوص، وكان عندنا خمس جاموسات، وعدد من الخراف، ماذا حدث في ظلمة الليل؟، دخل اللصوص، وكادوا أن يهربوا بالجاموس لولا هجوم «خليلتي» عليهم، وسماعنا لصوت الصباح، فاستيقظنا، وفر اللصوص..

ثم صرخ رمضان قائلا:

ومرة كادت كلاب القرية المجاورة تنهش لحمي لولا دفاعها عني، فقد ضربت الكلاب المؤذية بقرونها، بل رفعتها إلى أعلى وضربتها في الحائط.. هذه هي خليلتي، جاموستي، حبيبتي! فصرخت زينب قائلة:

خلاص! الآن أنت تسبح بحمد خليلتك، وأنت تجلس هكذا وحيدا في محرابها، ألا يهملك أمر جاموسة أخرى دون قرون، أنا الآن حامل، على وشك الإنجاب، أنا ذاهبة.. ورائي عمل كثير.. ماذا يهملك أنت؟

فقال أسلم:

أنا أيضا ذاهب يا أمي! فأبي يشد نفسا من بعد نفس بينما الدخان قد انتهى، كما انتهى الفحم من حجر النارجيلة.. وحين ذهب الابن مع أمه قال رمضان الأهطل لنفسه:

هؤلاء الظلمة لا يريدون السماح لي بالحزن على خليلتي.. لكنني سوف أقيم عزاء الأربعين لها!!

بعد نصف ساعة أو أكثر رجع أسلم، ومعه شميم زوجة أخيه، وقد نظفت النارجيلة، وغيرت الماء بداخلها، ونظفت الحجر الذي يوضع فيه الفحم مع الدخان، أما رمضان الأهطل، فأقبل على النارجيلة يسحب نفسا بعد نفس

بشدة، مثل صقر جائع، وقع فجأة على فريسة، وبدأ الدخان يتصاعد...

وحين شعر بقليل من النشوة قال:

لا بد أن أقيم الأربعين لخليلتي..

انفجرت شميم ضاحكة حين سمعت هذه العبارة، فانتفض رمضان الأهطل يسألها:

ماذا يا بنت أنت! على أي شيء تقهقهين؟

فردت عليه شميم، وهي تحاول أن تكتم ضحكاتها:

يا أبي هل ستعمل للجاموسة أربعين؟

فسحب رمضان الأهطل خرطوم النارجيلة وقال: يا لك من مجنونة!

فقال أسلم:

لا يا أبي هي ليست بمجنونة، المجنون هو من يقول ما قلت.. هل رأينا من قبل من يقيم عزاء لبقرة أو جاموسة، أو يقيم الأربعين لوفاة حيوان ما.. لا أدري ماذا أصاب عقلك؟

حرك رمضان الأهطل رقبتة مثل جمل يتمطى، بعد أن فوجئ بالسؤال، وتغير لون وجهه من فرط غيظه.. فقال أسلم مستفسرا باستخفاف:



من الواضح أن الحيوانات لن تأتي يوم الحشر ومعها كتابها، كما أنها لن تذهب لا إلى الجنة ولا إلى النار.. ولهذا..

فاستشاط الوالد من كلام ابنه، وصرخ في وجهه قائلاً:

حسنًا.. أنهار اللبن التي في الجنة.. يا أحمق! لبن من؟ غير لبن البقر والجاموس!!

عندئذ ضحك أسلم وشميم معاً، واستمرا في الضحك حتى كادا أن يسقطا على الأرض، بينما استمر رمضان الأهطل في كلامه:

يا أيها البلهاء! لقد حصلت على شهادة الإعدادية، لو أن من الممكن لكلب أصحاب الكهف أن يذهب إلى الجنة، فلماذا لا يمكن لخليتي، جاموستي، أن تذهب إلى الجنة أيضاً؟ ذلك لأنني قرأت على روحها القرآن الكريم، وأوصلت لها الثواب؟.

حاول أسلم أن يتماسك، ويعبر لأبيه عن رأيه في جدية تامة:

أبي، أنا أشك أن صدمة وفاة «خليتك» قد أثرت فيك، جعلتك شبه مجنون، يجب علينا أن نطلب لك الطبيب.. نحن جميعاً قلقون من أجلك.

فقال رمضان الأهطل ساخراً متهمًا:

طبيب.. ماذا يفعل لي الطبيب؟ مثلما عالج الدكتور رانا محمد «خليتي» لم تأكل المسكينة الطعام مدة شهر كامل، حتى الشرب أيضاً لم تشرب شيئاً، وأخذ يعطيها حقنة من بعد حقنة، وقلت له ألف مرة أن يعمل لها أشعة «إكس» حتى يمكن التعرف على المرض..

لم تتمالك شميم نفسها، وحاولت أن تكتم ضحكاتهما، فوضعت طرف «الإيشارب» في فمها لتكتم الضحك، ثم أخرجته من فمها وهي تقول:

يا أبي العزيز! أشعة إكس للجاموسة؟

ثم ضغطت على أسنانها ثانية، وهي تعض على طرف «الإيشارب»، تكتم ضحكاتهما، ولم يستطع أسلم أن يداري ابتسامته العريضة، لم يكن يدري هل يضحك أو يبكي على حالة والده، لكنه قال:

يا أبي! الدكتور رانا عطا محمد هو أمهر طبيب بيطري في مدينة بهاولبور، وبناء على كلامك طلبته هنا أكثر من مرة، في الحقيقة مرض «خليتك» كان تقدم العمر ليس إلا، وهو مرض الشيخوخة.. كان عمرها أربعاً وعشرين أو خمسين سنة، كانت ستموت في يوم ما.. أليس كذلك؟ هيا يا أبي.. أمي والجميع في انتظارك.

قالت شميم وهي تخاطب حماها بهدوء وتعقل:

حسنًا يا والدي! أخبرني.. إنك تحب خليتك كثيراً، ولهذا صرت هكذا عاطفياً للغاية، ولا تفكر في الجاموسة «ميني» مع أنها ابنتها.. ربما لأن قرونها ليست مثل قرون أمها!

فقال رمضان بلهجة ممزوجة بالحزم والشدّة، وهو يكرر ويسحب نفساً قصيراً:

هيا.. هيا اذهبي يا بنت، لا توجعي دماغي!!

جاء ابنه الأكبر رشيد بطعام العشاء إلى أبيه، كان مثل أبيه، لم يتعلم إلا لسنوات قليلة حصل بعدها على الشهادة المتوسطة، ولا شك أن جميع أعمال البيت تقع ضمن مسؤوليته، كانت أمه سعيدة به ومسرورة منه كثيراً، وقد زوجته في العام الماضي، حين رآه أبوه صاح فيه: ارجع بالطعام يا رشيد! لا أشعر بالجوع.

فقال رشيد بصوت متلجلج:

ماذا؟ إنك لم تأكل منذ ليلة أمس، قالوا لي إنك لم تأكل اليوم أيضاً، وشربت كوين من الشاي ليس إلا.. يا أبت! بالله عليك توقف عن هذا!

- أنا لن أموت، ماذا لو توقفت عن تناول الطعام عدة أيام..

طفلا صغيرا، في الليل وضعنا البطتين في القفص، ثم أطلقنا سراحهما في الصباح الباكر، فقام ذكر البط بتحريك رقبته البيضاء، يمدّها إلى الأمام، ثم انطلق يجري ورائي، في ذلك الوقت كانت «خليّتي» جاموستي تشرب من حوض الماء، وحين شاهدتني أجري في ساحة البيت، جاءت بسرعة، وضربت بقرنها ذكر البط، دفاعا عني. فhez رشيد رأسه موافقا على قول أبيه قائلا:

نعم.. نعم يا أبي أتذكر..

فقال رمضان الأهطل:

في تلك الأيام كنت في السادسة من عمرك.. ومع ذلك فقد كنت تدرك كم كانت تحبني.. والآن ماتت.. ألا تعطونني فرصة لإقامة عزاء لها..!!

أراد رشيد أن يعيد لأبيه عقله، فقال يحاول إفهامه:

هل من الضروري أن تقيم هذا العزاء؟.. لكن يا أبي لسنّا بإنجليز، نحن مسلمون، وإقامة قبور للحيوانات، وقراءة الفتحة على أرواحها، غير جائز في ديننا، فنحن مسلمون يا أبي.

فرد رمضان الأهطل:

هذه كلها دعاية يعملها الشيخ سردار إمام المسجد.



ماذا يخلجكم إذا بقيت

جائعا؟ ثم هل الطعام يدخل بطني أو يدخل بطونكم؟

سأل رشيد أباه بلهجة كلها مسكنة وتضرع:

يا أبي! ماذا أصابك؟ أركع أمامك راجيا عفوك عنا.. هيا معي إلى صحن الدار..

ثم أمسك بيد أبيه، يقربها من فمه، يشبعها لثما وتقبيلا..

قام رمضان الأهطل يضم إلى صدره ابنه البكر في حنان، وأخذ يمسح بيديه على رأسه، وتحركت عاطفة الأبوة بداخله فقال:

اسمع يا رشيد! هل تذكر حين أحضرت إلى البيت بطتين بناء على رغبتك، كنت في ذلك الوقت

هكذا رد رمضان الأهطل على

ولده..

- إن شاء الله أعداؤك يا أبي!

قال الابن هذه العبارة، ثم

وضع الصينية التي حمل عليها

الطعام أمام أبيه، وبدأ يكشف

غطاء الطبق الأول، كان بداخله

دجاج مطبوخ بالصلصلة، وكشف

غطاء الطبق الثاني فكان بداخله

خبز ساخن أعد في الفرن، ثم

خاطب أباه قائلا:

لقد عجنت أُمي بنفسها هذا

الخبز، وأعدته لك في الفرن

ليكون ساخنا، ويليق بهذا الدجاج

اللذيذ.. هيا كُل... كُل.. ولا

تخلجنّا يا أبي.

فرد الأب على الفور:



وبينما كان هذا الحوار يدور بين الأب وابنه، سمع صوت زينب يأتي من ناحية الشرفة، وهي تصرخ تنادي على رشيد..
فنهض رشيد وهو يخاطب أباه قائلاً:

حسنا يا أبي! إن شعرت بالجوع فتناول الطعام.. أمي تنادي.. ربما تلد «ميني» عجلاً صغيراً الآن. فهي في حالة المخاض..

خرج رشيد من الغرفة، بعد أن وضع صينية الطعام على طاولة مجاورة، وكانت نكهة الخبز الطازج، قد ملأت الغرفة، لكن الشعور بالجوع تلاشى تماماً، وسط الحزن على «الخليلة» الوفية، لهذا لم يمد رمضان الأهطل يده إلى الطعام..

في الخارج كانت السماء صافية، وقمر ليلة الرابعة عشرة يتوسط السماء في منظر بديع، لكن نسمات الهواء غابت عن الوجود، لهذا قرر أن يقضي الليلة تحت المروحة، ورغم أن النوم ابتعد عن عينيه آلاف الأميال، مع هذا أطفاً نور مصباحين كهربائيين كانا يضيئان الغرفة، ثم تمدد على الفراش.

في البداية حلت الظلمة الحالكة جنبات الغرفة، لكن بالتدريج، بدأ ضوء القمر يتسرب رويداً رويداً إلى

ملك بإعطائها حقنة في الرقبة، فما كان منه إلا قام بعمل مساج لها، وفي الأيام الأخيرة حين تدهورت صحة «خليلته» المسكينة، قام بتركيب «الجلوكوز» لها، لكن المسكينة أصابها الضعف الشديد، وساءت حالتها يوماً من بعد يوم، وحين تخيل تلك الأيام، لم يتمالك نفسه وفتح عينيه.

وهكذا مر من الليل أكثر من نصفه، ربما حرك جنبه آلاف المرات، لكن كيف ستمر عليه البقية الباقية من الليل، يقولون: إن النوم سلطان! لكن رمضان الأهطل استمر يستعيد ذكريات خليلته حتى غلبه النوم في النهاية.

كان من عادته طول عمره أن يفتح عينيه تلقائياً إذا ما أذن المؤذن في الفجر، فيبدأ الاستعداد

داخل الغرفة، حتى صار كل ما فيها واضحا إلى حد كبير، فصدرت عنه آهة، ممزوجة بالآثم والأسى، ثم أغلق عينيه..

وبينما هو كذلك تخيل صورة «خليلته» بحسنها وجمالها، بحوافر رجليها الأربعة، وذيلها الطري، وقطعة البياض البراقة على جبهتها، مع اللون الأسود البراق، والعيون الواسعة الجميلة، وجسمها المتناسق، وقوامها الجميل، كأنها «قطة» ملتانية، تروي العطشان، قرناها الملتقان إلى الداخل في شكل بديع..

كان أحيانا يتخيل أنه يحلب ضرعها، أو يغطّيها، أو يقوم بإعطائها حماماً بارداً، يغسل عنها أيضاً الأوساخ والأتربة.

ومرة قام الدكتور رانا عطا

لصلاة الفجر، لكن الأمر يختلف اليوم، فلم يتمكن مكبر الصوت الذي يحمل عادة صوت الشيخ سردار إلى القرية كلها من إيقاظه، فأذناه أصيبتا بالصمم، وكأنه أصيب بصدمة مفاجئة، فظل طريق الفراش ممدداً، مثل ثور أصيب بالإرهاق الشديد لا يقوى على التحرك..

كانت الشمس على وشك الظهور حين قدمت زينب ومن خلفها ولدها شميم، وصعدا إلى حيث كان رمضان الأهطل مستلقيا على الفراش..

صرخ رشيد وصاح:

أبي! استيقظ يا أبي.. انظر! ماذا أعطاك الله؟

أخذ رمضان يتمم بكلمات غير مفهومة، ثم نهض من الفراش.. كان رشيد يحمل «زكية» كبيرة، وهو ينظر إليها بتمعن شديد، ففي نور الصبح الصادق من الله عليهم

ووضعت الجاموسة عجلاً صغيراً، حمله رشيد في حضنه، وأخذه إلى الغرفة ليحاول تدريبه على الوقوف هناك، وبسرعة أضاء المصباح الكهربائي، فعم الضوء أركان الغرفة..

قالت زينب وهي مبتهجة: يا رمضان يا أهطل! افرح.. ابسط وجهك سرورا وغبطة.. يا ظالم! انظر «خليلتك» أنجبت.. انظر إليه إنه يشبهها تماما.. الأرجل، والذيل، والجبهة تماما مثلها..

ثم أخذت زينب تتحسس كل جزء في جسم المولود الجديد.. يا أبي! انظر.. هذا مولود «ميني» ابنة خليلتك، تماما مثل خليلتك..

هكذا قال شميم لأبيه، وهو يفتح «الزكية» أمام أبيه: حين يكبر سوف يلتف قرناه مثل «المشبك» الحلو.

قفز رمضان الأهطل.. ونزل من فوق السرير، بينما كان الضيف الجديد يحاول أن يتماسك، ليقف على أرجله الأربع، في وقت غرق فيه رمضان الأهطل في عالم من الحيرة، وكأن كيس جواهر انفتح أمامه فجأة، فتلألأت الجواهر من داخله..

اندفع رمضان الأهطل إني ولده وقد ملأ الفرح قلبه: أوه.. يا رشيدا صحيح.. هذه خليلتي! تماما.. نفس الجبهة.. نفس الذيل.. نفس الحوافر..

وغرق رمضان الأهطل في عالم من الجنون، فأخذ يلثم كل جزء في جسم المولود الجديد، بينما امتلأت عيناه بدموع الفرح التي تساقطت على خديه كحبات لؤلؤ... وهو يقول: أوه! لهذا كانت «ميني» قلقة مضطربة..

ثم بدأ رمضان الأهطل ينتمل حذاءه، بينما انفجرت شميم الواقعة بجواره في الضحك! ■

عزوف..

محمد أحمد فقيه - اليمن

سئمت العيش في ظل السقوف
ومن وجع الأسى عزفت حروفي
وأزمنت الرحيل بغير زاد
وأوكلت السبيل إلى الحتوف
وطاف بي الحنين وقد شجاني
يسألني متى يمضي وقوفي
سامضي في مناكبها سراعاً
وتنظم بعض أوجاعي عزوفي..!!